

## أقلام معاصرة بحبر أصيل

### ذكي نجيب فى الفكر العربى المعاصر

بوسباعى بشرى<sup>(١)</sup>

#### مقدمة:

إنه كلما خلد إنسان إلى نفسه متأملاً إلاّ وحدث فى ذلك نشاط عقلى على صعيد فكره، فهو بهذا يجد علاقة فهم ووعى يدرك الإنسان أنّ للفكر ميزة التقويم، والتقويم هو فى حد ذاته تقدير شامل للأفكار سواء كانت هذه الأفكار نظرية أو عملية معاً وعلى هذا الأساس يمكننا أن نقيس هذا الكلام على معادلة الفكر العربى الذى كان مرسى بحث من المفكرين العرب، كما حضى باهتمام كبير لتورق صفحاته فكان مضمون هذه الصفحات يتناول العديد من المفكرين والفلاسفة الذين كانت لكل واحد منهم بصمته الخاصة فى طريقة تفكيره، ولهذا اختلفت مشاربهم الفكرية و الإيديولوجية بحيث قدّموا مشاريع نظرية تتسم بخاصيتى الشمولية والإبداع، أما الصفحة التى استوقفنا عندها هى تلك الخاصة بالمفكر المصرى الكبير «زكى نجيب محمود» ليس إجحافاً منا فى حق المفكرين الباقيون لكن ركزنا وأوغلنا اهتمامنا على زكى نجيب محمود، فبحكم إطلاعنا على دراسات عديدة تناولت آراء المفكرين والدارسين العرب ولاسيما تلك التى تطرقت بالتمحيص والتدقيق لواقع الفكر العربى الراهن، أمثال محمد عابد الجابرى، حسن حنفى وحسين مروى، طه عبد الرحمن، محمد أركون، ومالك بن نبي، وغيرهم

(١) السنة الرابعة دكتوراه (ل م د)، قسم الفلسفة، تخصص فلسفة عربية معاصرة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية.

الذين حاولوا تبسيط وإيصال ما أبدعوه في المجال الفكري في العالم العربي، بحيث حاولنا من خلال هذه النظرة التركيز على فكر زكي نجيب محمود فكانت طريقة عرضنا له تتمثل في إبراز واكتشاف الإشكالية الناظمة لفكره مع تحديد موقفه ومنزلته في خارطة الفكر العربي الراهنة وتلخيص جزء من مشروعه الفكري بلغة مبسطة، وعلى هذا الأساس يحتل زكي نجيب محمود في تاريخنا الفكري المعاصر مكانة كبيرة بحيث «بوسباعى بشري» شقَّ طريقه وخاض العديد من المعارك الفكرية الهامة التي تشكل البنية الرئيسية في الفكر العربي المعاصر، لذا نجد اهتماماً أولاً بمشكلة التراث متجاوزاً الأسباب الثانوية وغير مباشرة وواضعا بذلك اليد على الأسباب الحقيقية والمباشرة إلى أن الحل يكمن عند الذات لا عند الآخر من خلال تحول الفكر العربي من التخلف والعجز إلى القدرة والفاعلية وصنع الحضارة وسار بمقتضى هذه الأفكار حتى يشق منبع العقول بنور التفكير محاولاً في هذا القضاء على ما هو لا عقلي ولا علمي في مجتمعاتنا حاملاً لواء الفلسفة الوضعية المنطقية في التفكير مستقداً منبر التوجيه والتغيير، مستندا في هذا إلى إيمانه الكامل بأن الفلسفة الوضعية هي التي تقود إلى تنوير العقول. من هذا التمهيد يمكن تحديد إشكالية البحث في ما يلي:

• هل يمكن حصر فكر زكي نجيب محمود في جانب الوضعي المنطقي أم أن

هناك جوانب أخرى يجب تسليط الضوء عليها؟

لقد سعى هذا الأخير جاهداً إلى تطبيق المنطق العلمي في التفكير وتجسيد هذا الأخير في مجتمعنا العربي، وفي هذا السياق حاول زكي نجيب محمود من خلال إنتاجه الفكري استعمال الوضعية المنطقية في قراءته ودراساته التي بنى بها سرحاً جديداً يرسم الوجه الجديد لكل عمل عقلي أو نظري من أجل إثراء المدارس الفكرية العربية، من خلال إرساء معالم حضارية جديدة معاصرة وعدم الانغماس

بذواتنا في الماضي كى نتعامل مع واقعنا وتراثنا؛ لنتمكن من نقل المجتمع نقلة نوعية تحقق له الصحو ومواكبة روح العصر والعصرنة.

ولكن البيئة الثقافية العربية التى عاش فيها زكى نجيب محمود تختلف من حيث الواقع والتطلعات عن البيئة الأوروبية، وذلك أن الفرق يتمثل فى ضعف التمكن الحضارى فى الواقع العربى وإهمال أمهات القضايا مما جعل مفكرنا يبنى سرحاً جديداً ويحدث اختراق فى واقعه من خلال النسيج الفكرى المحبوك الذى أبدع فيه الدراسة للواقع العربى.

#### - رحلة اكتشاف «زكى نجيب محمود» للتراث:

قبل أن نبين رحلة اكتشاف «زكى نجيب محمود» للتراث، يجدر بنا أولاً أن نوضح مفهومه له، فقد اختلفت الرؤى حول مفهوم التراث قد يكون عبارة عن حياة ماضية لمجتمع بما تحتويه هذه الحياة من عناصر ثقافية واجتماعية وسياسية واقتصادية ويعرف أيضاً (التراث) بأنه عبارة عن مجموعة من العناصر الثقافية والفكرية فقط، وقد ينظر إليه بوصفه عقيدة لا غير<sup>(١)</sup>، كما يرى «زكى نجيب محمود» أنّ التراث بوصفه مرّة فكرة وثقافة و مرّة يصفه عقيدة فقط، وهو فى هذا يراه قائماً على أساس النظرة الثنائية للوجود حيث يقول فى كتابه ثقافتنا فى مواجهة العصر: «ونعود إلى الهيكل الصورى الذى أشرنا إليه فى أول هذا المقال زاعمين أنه بين قوائم الثقافة العربية الأصلية فقد كان أهم ما ذكرته عندئذ مقابلة بين «مطلق» وعالم «الحوادث» وما لم تكن وقفة المثقف العربى - مهما يكن ميدانه - وقفة تجمع بين هذين الطرفين لا من حيث يكون «المطلق» استخلاصاً فى عالم الحوادث الجزئية بل من حيث هو موجود واجب الوجود يفرض نفسه على مجرى الأحداث فمثل ذلك المثقف لا يثير الصلة بينه وبين «الأصالة» بالمعنى الذى يرد الأصالة إلى

١- أسامة على حسن الموسيقى، المفارقات المنهجية فى فكر زكى نجيب محمود، لجنة التأليف والتعريب والنشر، الكويت، ط١، ١٩٩٧، ص ١٥٥.

الأصول الأولى» ومن خلال هذا يتبين أن زكى نجيب محمود اعتبر أن العقيدة من أهم دعائم الثقافة العربية أو التراث العربى من منظور أنها ترتكز على مفهوم المطلق الواجب الوجود المفروض إيماناً بوجود عالم غيب وراء عالم الشهادة على حد تعبير زكى نجيب محمود وعلى هذا الأساس فالعقيدة تعتبر صلب تراثنا الإسلامى كما يرى أيضاً أن منهج التفكير المنطقى و العلمى جزءاً من التراث الإسلامى<sup>(١)</sup>.

لقد انصرف زكى نجيب محمود إلى القول بأن ما يميز تراثنا هو مجموعة القيم القادرة على حياة مثلى، يكون فيها العمل والأمل، وهى منظومة من القيم لم تعرف بها أمة كما عرفنا ومن ثمة فهى التى يمكن أن تمدنا بالطابع الفريد الذى يحقق لنا الأصالة<sup>(٢)</sup> فمن أهم ما يميز تراثنا الإسلامى هو مجموعة القيم المنبثقة فيه وخصوصاً القيم الأخلاقية المطلقة، لذلك فهو يرى أن خاصية الحضارة الإسلامية هى تمحورها حول الأخلاق، فبناء الحضارة الإسلامية ركيزتها «الأخلاق»<sup>(٣)</sup>، ويضيف إلى ذلك بقوله: «كانت الأخلاق هى أعمق الأسس التى بنيت عليها حضارة الإسلام، وعلى هذا الضوء نفهم من قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «انه بعث ليتمم مكارم الأخلاق»<sup>(٤)</sup>.

بيد أن زكى نجيب محمود وإن كان قد أطلع إطلاعاً واسعاً على الثقافة الغربية وبدى معجب بمقوماتها إلا أنه أثناء تطوره الفكرى اكتشف ميزة أخرى بحضارة إسلامية من سائر الحضارات، هى أنها أدارت ريجها حول «الأخلاق» فإذا كانت حضارات أخرى قد أرست قواعدها فى المقام الأول على «الفن» أو على العلم،

١ - أسامة على حسن الموسيقى، المفارقات المنهجية فى فكر زكى نجيب محمود، المرجع المذكور سابقاً، ص ١٦٠.

٢ - زكى نجيب محمود، ثقافتنا فى مواجهة العصر، دار الشروق القاهرة، ط٣، ١٩٨٣، ص ٨٩.

٣ - زكى نجيب محمود، عن الحرية أتحدث، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٨٦، ص ٢٣٣.

٤ - زكى نجيب محمود، عن الحرية أتحدث، المصدر السابق، ص ٢٣٥.

أو غير ذلك من أسس كالزراعة والتجارة والصناعة، فإن الحضارة الإسلامية قد اختارت الأخلاق أساساً لها<sup>(١)</sup> لذا يرى أيضاً زكي نجيب محمود أن هذه القيم هي ما يمتاز به تراثنا الإسلامي وهي التي إذا ما تمسكنا بها سنتشكنا من وضعنا الراهن بعد إضافة تغييرات ومفاهيم معاصرة عليها ومن بين هذه القيم التواصل وخصوصاً بين رجال الفكر ولقد كان ما يلفت النظر في الحياة الفكرية لآبائنا العرب الأقدمين تواصل قوى وثيق بين رجالها، حتى لتحسبهم في كل شريحة زمنية أسرة واحدة اجتمعت تحت سقف واحد فها هنا كتاب يصدر في موضوع معين فلا يلبث أن يرد عليه ناقد هناك للكتاب، بل كان هؤلاء الرجال بالفعل ينتقلون ليلتقى أحدهم بأحدهم لقاء حياً، فيتبادلون الرأي، وكان جميعهم أساتذة يعملون في جامعة واحدة<sup>(٢)</sup> وعليه نجد زكي نجيب محمود أنه اصطنع منهجاً جديداً في دراسته مخالفاً للمنهج الوضعية المنطقية، وهذا المنهج قائم على الموروث، فهو يقول: « ومتى تكون جملة الكلمات سلطان على الناس؟ أجبتك بقول: أنظر إليها كم تحرك بها الناس نحو أن يغيروا ما بأنفسهم ليغيرهم الله ظروف معاشهم، فإذا وجدت الجملة قد وقعت بكلمات على صميم فقل عنها إنه قد كانت - لأمر ما - كهباء يسقط على الأجساد فلا تحسه الأجساد، فالكلمات نتائجها»<sup>(٣)</sup>.

وعليه نجد أيضاً من القيم التي ناشدت التراث العربي لم تنحصر في الأخلاق فحسب، إنما تجاوزت الواقع المعاش الذي يعطينا القيمة العملية التي من خلالها نواكب روح العصر ونجتاز واقعنا المتخلف من المنظور العملي أو بالأحرى القيمة العملية التي ترفع حسب «زكي نجيب محمود» مبنى الحياة وتعتبر العنصر الحاسم في التراث، وقد يستند «زكي نجيب محمود» في هذا الصدد على محكم التنزيل فهو يقول أنه كلما ذكرت الآية يخاطب الله فيها المؤمنين أضاف إلى ذلك «وعملوا

١- المصدر نفسه، ص ٢٣٢.

٢- زكي نجيب محمود، ثقافتنا في مواجهة العصر، المصدر السابق، ص ١٣٣.

٣- زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربي، المصدر السابق، ص ١٩٨.

الصالحات»<sup>\*</sup> فكأنّ الإيمان لا يكون إيماناً كاملاً إلاّ إذا اقترنا بالعمل الصالح وصلاحية العمل إنّما تكون إلى الهدف المنشود إلى النوع الموقف الذى نواجهه، ومعنى هذا أنّ العمل الصالح حسب «زكى نجيب محمود» يكون مرسى الإيمان الكامل، لأنّ صلاحية العمل تقتضى الهدف الذى نسعى للوصول إليه وإلى مقياس الموقف الذى نصادفه.

كما يرى «زكى نجيب محمود» أنّ مجموعة القيم من خلالها يمكننا رسم حياة مثلى يكون فيها العمل والأمل بمثابة الخطين المتوازيين الذين يسيران على جنب لأتمّها تمدنا بالطابع الفريد الذى يحقق لنا الأصالة<sup>(١)</sup>.

لقد وجد «زكى نجيب محمود» فى التراث العربى ميزة أخرى وهى ميزة العقل حيث رأى بأنّ العربى القديم كان فى نظرتة للعالم وما فيه يستند إلى «العقل»، و حتى فقهاء اللغة العربية سعوا إلى إيجاد مبانى تعتمد على العقل فى تفسير أوضاع اللغة وقواعدها حتى ولو يوفقوا فى الوصول إلى النتائج والأهداف المرجوة وإنّما الأهم من ذلك يكمن فى استعمال العربى للعقل كما أنّ المشكلات القديمة التى كانت تواجه العرب مثل مسألة الكبائر التى كانوا يرتكبونها لإيجاد حل لتفسير معطى هذه الكبائر وإن كانت كفراً فى تمدهم لارتكابها أو يضلون على إيمانهم بالرغم ما اقترفوه وقد احتكموا فى هذا إلى استعمال العقل، وهذا ما نجده حسب «زكى نجيب محمود» فى بعض الفرق الإسلامية التى

استندت إلى العقل مثل «المعتزلة»<sup>\*</sup> وعلى رأسها واصل ابن عطاء الذى وقف موقف عقلى اتجه هذى المسألة، كما وقف أيضاً موقف وسط فى حكمه على مرتكب الذنب واصفاً إياه بأنّه ليس كافراً مطلقاً ولا مؤمن إيماناً كلياً، لذلك رأى «زكى

\* آية ذكرت فى عدّة سور من بينها: سورة العصر الآية ٣، البينة الآية ٧، التين الآية ٦.

١ - أسامة على حسن موسى، المفارقات المنهجية، المرجع السابق، ص ١٦١.

\* المعتزلة: فرقة كلامية ظهرت فى القرن الأول للهجرة وبداية القرن الثانى على يد واصل ابن عطاء.

نجيب محمود» ضرورة إتباع أسلافنا من مبتغى وتوظيفهم للعقل توظيف يطرأ جميع الجوانب المعيشية والحياتية على العكس من ذلك رأى كذلك «زكى نجيب محمود» أنّ المصريين من العرب مالوا نوعاً ما عن طريق العقل وأحكامه واستندوا إلى الوجدان وميوله<sup>(١)</sup> بحيث يتبين لنا أنّ «زكى نجيب محمود» قد أعجب بفكرة محمد إقبال التي أوردها في كتابه التجديد في الفكر الإسلامي<sup>(٢)</sup>، مفادها أنّ الرسول عليه الصلاة والسلام كان لا بد أن يكون خاتم الأنبياء وأن تكون رسالته آخر الرسالات لأنّه جاء من أجل العمل على إيجاد الحلول للمشكلات التي يتعرض لها الناس في مختلف المجالات وذلك وفق مقتضى عقلي وعليه فما دام أنّنا نسير وقف العقل لا نحتاج إلى إيجاد وسيلة أخرى، وقد استند «زكى نجيب محمود» في هذا إلى مقولة الجاحظ عن العقل وهي: «أليس العقل هو وكيل الله عند الإنسان»<sup>(٣)</sup>، وأيضاً «وإنما سمية العقل عقلاً - كما يقول الجاحظ - لأنه يزم اللسان و يحطمه عن أن يمضي فرطاً في سبيل الجهل والخطأ والمضرة كما يعقل البعير»<sup>(٤)</sup>.

وإذا ما أردنا أن نوضح هذا نجد بأنّ العقل يعد المرسي الوحيد الذي يوجهنا بالأحرى يعصم اللسان من الزلل<sup>(٥)</sup>. وعلى هذا الأساس إذا حولنا السير في نفس الاتجاه الذي سار فيه أسلافنا لا بد لنا أن ننظر إلى العالم نظرة يحكمها العقل في مختلف المشكلات التي تواجهنا.

#### - التوفيق بين التراث والمعاصرة:

إن انتقال «زكى نجيب محمود» من الفكر الغربي عامة و الوضعية المنطقية خاصة إلى التراث لا يعنى هذا بأنه تحلى عن الفكر الغربي كاملاً، وإنما أراد

١- زكى نجيب محمود، تجديد الفكر العربي، المصدر السابق، ص[٣٢٥-٣٢٨]. بالتصرف.

٢- المصدر نفسه، ص ٣٠٩.

٣- المصدر نفسه، ص ١١٠، نقلاً عن رسالة المعاش والمعاد، ج ١ من رسائل الجاحظ، ص ٩١.

٤- المصدر نفسه، نقلاً عن رسالة كتمان السر وحفظ اللسان، ج ١، من رسائل الجاحظ، ص ١٤١.

٥- المصدر نفسه، ص ٣١٠.

المزاوجة بين هذا الأخير (الفكر الغربى) وبين التراث، حيث تعد هذه المرحلة فى فكر «زكى نجيب محمود» هى مرحلة انتقال وتزاوج بين الفكرى العربى والغربى وليست مرحلة إنهاء وتخلي عن الفكر الغربى.

تعد هذه المرحلة من أهم المراحل التى مرّ بها فكر «زكى نجيب محمود» باعتبارها نقلة اكتشاف ومحطة وصول لأنّ مسألة الجمع بين الموروث الثقافى الأصيل الذى يعتبر من بين المقومات الأولى التى أعطت الهوية لتاريخ العربى بصفة عامة والشعب العربى بصفة خاصة، من منظور أنّ السير فى هذا المقام يحتم على كل عربى تمجيد ماضيه الذى يجسد مبناه، وبين الوجه الآخر للحياة التى أعطت لنا الشعلة لمسيرة زمننا من الناحية الفكرية والجسدية معا، نجد بأنّ النقلة الفكرية لزكى نجيب محمود فى أواسط الستينيات لم تكن بنفس الطريقة التى أحدثها سابقاً عندما كان منغمساً فى الثقافة الغربية<sup>(١)</sup> كما يظهر ذلك من خلال كتاب قصة عقل ومن أجل توضيح ذلك نقول أنّ تطور فكر زكى نجيب محمود نلاحظ تغير فى نصرته إلى الثقافة الغربية، وبالأحرى الفكر الغربى حينما قال: «لم أكن فى تلك الأعوام أفرق بين ما يجوز نقله عن الغرب وثقافته وما لا يجوز، فكل ما عندهم واجب النقل إلينا... أن نأكل كما يأكلون ونكتب من الشمال إلى اليمين كما يكتبون وأن نرتدى من الثياب ما يرتدون»<sup>(٢)</sup>، وإذا ما أرنّا توسط الحديث عن «زكى نجيب محمود» فى هذا الصدد نجد أنّه اعترف بصريح العبارة أنّ نظرتة للتراث كانت سلبية أراد إقصائه إذ يقول فى هذا الصدد: «بدأت بتعصب شديد لإجابة تقول أنه لا أمل لحياة فكرية معاصرة، إلاّ إذا بترنا التراث بترّاً وعشنا مع من يعيشنا فى عصرنا علماً وحضارة ووجهة نظر إلى الإنسان و العالم»<sup>(٣)</sup>، وعلى هذا الأساس يتبين لنا أنّ «زكى نجيب محمود» اعترف بمبالغته بدعوته بالتخلي عن

١- زكى نجيب محمود، قصة عقل، دار الشروق، القاهرة، ط، ١٩٨٨، ص ٢٢٢.

٢- المصدر نفسه، ص ٧٣.

٣- زكى نجيب محمود، تجديد الفكر العربى، المصدر السابق، ص ١٣.

التراث من أجل معايشة العصر من منظور أن «زكى نجيب محمود» وازن النظر بين الأصيل المتجذر فينا وبين عصرنة واقعنا بحيث أعطى تشبيهه في هذا الصدد بقوله: «إنه قد تكون لدينا أنوال قديمة لنسيج القماش ، فهل تحدث ثورة في صناعة النسيج ، إذا نحن أبقينا على الأنوال القديمة كما هي ثم زدنا من كمية القماش المنسوج وغيرنا من ألوانه وزخارفه»<sup>(١)</sup>، أى «خلق تركيبة عضوية تجمع بين التراث والحضارة العصرية»<sup>(٢)</sup>.

إنّ مسألة أو مشكلة الأصالة والمعاصرة عند زكى نجيب محمود هي الصيغة التي تجمع بين العقل والوجدان وإذا ما أحدثنا ثورة فكرية حسب زكى نجيب محمود لا بد أن يتغير المحصول الناتج وأن تتغير الأوضاع والقوانين، بما يتناسب مع الأساس الجديد، فعندما كان يميل زكى نجيب محمود إلى التيار الغربى بحذايفه ادخل تصورا جديدا عدل فيه نظرتة السابقة، ولا يرى في تغيير موقفه هذا عيبا إذ يقول : « ليس في هذا التحول ما يعيب أحداً إلا من تشبث في رأيه حتى لو ظهر بطلانه »<sup>(٣)</sup>، والعقل<sup>(٤)</sup> والوجدان<sup>(\*)</sup> من منظور أن الجانب الوجداني حسب زكى نجيب محمود من أهم الجوانب الموجودة في الفطرة الإنسانية وحياته، فلا يجوز بأى حال من الأحوال إنكاره<sup>(٥)</sup>، فإذا قسمنا هذه الفكرة (العقل والوجدان) على معادلة التراث عند تحليله نجده بمثابة النسيج المتألف في الثقافة العربية التي تبدو ذات قابلية وسمة بارزة والتي يمكن لها أن تكون مصدرا متينا لإقامة ثقافة عربية جديدة

١- زكى نجيب محمود، قصة عقل، المصدر السابق، ص ٢٣.

٢- أسامة حسن الموسى، المفارقات المنهجية في فكر زكى نجيب محمود، المصدر السابق، ص ١٦١.

٣- زكى نجيب محمود، قيم من التراث، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ١٦٧.<sup>٣</sup>  
العقل: بوجه عام هو ما يميز به الحق من الباطل والصواب من الخطأ. (إبراهيم مدكور، الهيئة العامة للشؤون والمطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٨٣، ص ١٢٠).

\* الوجدان: هو النفس وقواها الباطنة من جهة ما هي وسيلة لإدراك الحياة الداخلية. (المعجم السابق نفسه، ص ٥٥٧)

٤- زكى نجيب محمود، قصة عقل، المصدر السابق، ص ١٧٥.

تحافظ على أصالتها وتواكب عصرها في آن واحد<sup>(١)</sup>، كما يتضح ذلك جليا في كتاب «قصة عقل» الذى ظهر بعد سفره إلى الكويت، لذلك يمكن اعتبار حصول التوفيق عند زكى نجيب محمود في سبعينيات القرن الماضى.

فإذا تفحصنا دفتر التراث نجد بأنه اجتمع طرفان العقل و الوجدان معاً بحيث اجتمع تأمل المتصوف و تحليل العالم ، و فى هذا الصدد يقول زكى نجيب محمود : « إذا جاز لنا أن نضع عنوانا وصفيا يلخص اتجاه الثقافة العربية فى كل عصورها المنتجة قلنا أنها عقل فى خدمة الوجدان»<sup>(٢)</sup>، وما يعنيه «زكى نجيب محمود» هو الذى يطلب أن تقام البراهين على كل فكرة يتقدم بها صاحبها إلى الناس، وأما الوجدان فيقبل ما يقبله ويرفض ما يرفضه بلا برهان<sup>(٣)</sup>، وإذا استرسلنا الحديث عن العقل والوجدان حسب ما يراه زكى نجيب محمود بأنه أراد أن يجعل من نفس العربى مزيج بينهما (العقل والوجدان) من منظور أن العربى صاحب علم وصاحب دين فى آن واحد لأن العلم هو «عقل» ودين هو «وجدان» ، وهذا أمر بين بذاته لا يحتاج إلى برهان لأن اللقاء بين هذين الجانبين لا يشترط أن يتم فى فرد واحد بل يجب أن يتحقق لدى عامة الناس منهم من يتفرد بالتفكير العقلى وغيرهم أصحاب الحالات الوجدانية، وعلى هذا الأساس إذا ما ازدوجت الرؤية بين العقل والوجدان فى ثقافة واحدة يعنى هذا ازدواج المستويان متعاقبين الذين لا يكون بينهما صدام ولا تنافر، فقد يأتى الإدراك الوجدانى المباشر ثم يأتى بعد ذلك أعمال منطوق العقل الذى بمقتضاه جملة من الأهداف للإدراك الوجدان، وهذا ما يتضح فى الثقافة العربية إذ يسلم المؤمن أولاً ثم لا عليه بعد ذلك أن يتناول بالتحليل العقلى ما أمن به<sup>(٤)</sup>.

١- المصدر نفسه ، ص ١٢٣ .

٢- زكى نجيب محمود، الشرق الفنان، دار القلم، القاهرة، بدون سنة، ص ١٨٤ .

٣- زكى نجيب محمود، قصة عقل، المصدر السابق، ص ١٨٥ ، ١٨٦ .

بين زكى نجيب محمود في كتابه الشرق الفنان أن هناك طرفان طرف يتمثل في الشرق الأقصى وطرف آخر يتمثل في الغرب، بالنسبة إلى الأول يقوم على فكرة مؤداها أن ينظر الإنسان إلى الوجود نظرة حدسية (المعرفة المباشرة)، وهذه النظرة هي نظرة الفنان الخالص أما الثاني (الغرب) هو أن ينظر الإنسان نظرة عقلية تحلل الظواهر وتقرن وتستدل وهذه نظرة العلم الخالص وقد وازن زكى نجيب محمود بين الطرفين واصفاً بذلك وسط يجمع بينهما ويتمثل هذا الوسط في الشرق الأوسط الذى بين تاريخ ثقافته على المزاجية بين إيمان البصيرة ومشاهدة البصر، أى بين الدين والعلم<sup>(١)</sup>، يوضح زكى نجيب محمود في هذا الصدد أن علوم الطبيعة وإبداعات الفنون تسيران معا في خطين متوازيين، فبالنظرة الأولى أى علوم الطبيعة «عقل يعمل» أما في إبداعات الفنون فالكل يجب أن يكون موقفنا إزاء هذا هو أن يتواصل مع العالم الحاضر في علومه ونفرد بما هو وجدان قومى خاص، لأن داخل هذا الوجدانى الخاص ميزات أساسية متمثلة في عقيدتنا الدينية وبعض تقاليدنا الأسرية<sup>(٢)</sup>، فقد كانت نظرة «زكى نجيب محمود» للتراث العربى الإسلامى نظرة شمولية بحيث جمع بين الدين والفن والتقاليد السابقة، كما تأثر بالخطاب الراشدى عندما أوضح مؤكداً أنه استلهم تجربة ابن رشد (١١٢٦-١١٩٨) التوفيقية في جل كتاباته التى حاول فيها فصل النزاع بين النقل والعقل وتحديد الثوابت الثقافية العربية ومتغيراتها<sup>(٣)</sup>.

كما يرى زكى نجيب محمود أن هناك عدّة عناصر يجب أن نربطها مع بعضها البعض لتمكن من حضارة عربية معاصرة والتى تقوم على ترجمة كل الإنتاج الإنسانى إلى اللغة العربية مع الاحتفاظ بقواعد السلوك لأن ما يميز العصر هو

١- زكى نجيب محمود، الشرق الفنان، المصدر السابق، ص ٨٩.

٢- زكى نجيب محمود، قصة عقل، المصدر السابق، ص ٨٩.

٣- عصمة نصار، الخطاب الفلسفى عند ابن رشد وأثره في كتابات محمد عبده وزكى نجيب محمود، دار العلم بالغيوم ٢٠٠٢، ص ٣٣.

العلم وجل تقنياته بحيث إن أنزلنا المضمون العلمى بمميزاته في ميدان من عندنا حصلنا على النتيجة التى نريد، أما الميدان الأول فهو اللغة الممزوجة بالفكر العصرى كما هو، لكى نحصل على نتاج عربى القسمات والملامح، أما فيما يخص الميدان الثانى فهو قواعد السلوك من حيث التشريع أى ما يتماشى مع القواعد ومقتضيات علوم العصر مع تشعبها<sup>(١)</sup>، إذ بعد رؤية زكى نجيب محمود بضرورة الأخذ بالمنهج الغربى العلمى والتجريبى، تغيرت نظرتة لهذا فقد راءه أنه لا يكفى لأنه نتيجة التحقق منه غير يقينية قد يتحقق لنا يوما ما فيكون ضمن الذى دفعته في مقابل ذلك هو أنفسنا، كما أكد زكى نجيب محمود على حتمية المحافظة على الهوية العربية بصفة عامة وهويته المصرية بصفة خاصة<sup>(٢)</sup>، لذلك رأى زكى نجيب محمود بوجود تبنى الفرد نظريتين (علمية وصوفية) على أساسهما يقسم حياته إلى قسمين أحدهما ينصرف إلى دنياه والأخر يلتمس به الآخرة<sup>(٣)</sup>، فهو بهذا يوازن موازنة في غاية الدقة والبراعة بين وجهى الحياة، فالواقع المحسوس مجال ولما وراءه مجال آخر بحيث لا يتجاوز أحدهما الآخر بل يسيران في خطوط متوازية، لذا يجب مراعاة التوازن بين النظرة للواقع حين ينبغى أن يمحصر رؤيته فيه ثم النظر إلى ما ورائه باعتبار أنه مهما عايشنا الواقع بما فيه من قيم علمية رفيعة إلا أنها تبقى جزئية فانية وعابرة على عكس المطلق الأزلى الأخرى الذى لا يفنى<sup>(٤)</sup>.

يتضح من خلال هذا أن زكى نجيب محمود أصبح يبدى أهميته لجانب الأصالة ويحافظ على الهوية العربية الإسلامية بحيث حاول إيجاد ثنائية يجمع فيها بين الثقافة العربية والثقافة الغربية ومن شأن هذه الثنائية أن تفتح كما يقول زكى نجيب محمود: « تفتح أمامنا أفاق مغلقة فهى ثنائية تضع الإنسان على قدميه فوق

١- زكى نجيب محمود، هذا العصر وثقافته، دار الشروق، القاهرة، ط ١، ١٩٨٠، ص ٨.

٢- زكى نجيب محمود، قصة عقل، المصدر السابق، ص ٢٢٥.

٣- المصدر نفسه، ص ٢٣٠.

٤- المصدر نفسه، ص ٢٣٠، ٢٣١.

الأرض، وترفع رأسه إلى السماء أى أنها تتيح له الفرصة أن يعيش لها معا فعلى الأرض يسعى علما وعملا بكل ما يتطلبه العلم من دقة وما يتطلبه العمل من صبر ودأب، وفي السماء يهتدى بالمثل التى ترسم أمامه لتكون له على الطريق أهداف وغايات»<sup>(١)</sup>.

إن العلم والقيم كلاهما فى أوروبا وأمريكا بنيت من الأرض وأما الشائبة المقترحة فتجعل العلم نباتا ينبثق من الأرض وظواهرها، وتجعل القيم غيثا ينزل من السماء ووحيا مطلق لا تغير مع تغير الزمن فهى ثابتة من ناحية الأسس، والعلم نسبي يتغير مع التغير والتطور<sup>(٢)</sup>، وهذا أراد زكى نجيب محمود إيجاد سبيل من أجل دمج التراث العربى القديم فى حياتنا المعاصرة، حتى تكون لنا حياة عربية ومعاصرة فى آن واحد وذلك من خلال البحث عن طرائق السلوك التى يمكن نقلها عن الأسلاف العرب بحيث لا تتعارض مع طرائق السلوك التى استلزمها العلم المعاصر والمشكلات المعاصرة<sup>(٣)</sup>، ويرى زكى نجيب محمود أنه لا سبيل لأن تكون عربيا ومعاصرا فى آن معاً إلا إذا أخذنا من التراث صورته دون مضمونه، والأخذ من الفكر المعاصر مضمونه دون صورته، ثم ندمج الصورة التراثية مع المضمون المعاصر فنشكل بذلك عربيا ومعاصرا<sup>(٤)</sup>.

إذا ما نظرنا إلى تاريخ الفكر فى الشرق نجد بأنه هو التاريخ الإدراك الصوفى حسب زكى نجيب محمود باعتبار أن الشرق نزعة روحانية تصوفية فنية على غرار الغرب الذين ينتهجون النزعة العقلية المنطقية العلمية، وإذا توسطنا الحديث عن هاتين النزعتين نجد أنهما متجاورتين فى رحم الشرق الأوسط بحيث لا يمكن

١- زكى نجيب محمود، تجديد الفكر العربى، المصدر السابق، ص ٢٨٤.

٢- زكى نجيب محمود، تجديد الفكر العربى، المصدر السابق، ص ٢٨٤.

٣- المصدر نفسه، ص ٢٠.

٤- زكى نجيب محمود، من خزانة أوراقى، دار الهداية للطباعة والنشر، بدون بلد، ط ١، ١٩٩٦،

ترجيح القول بأن كلا من الشرق والغرب شيء واحد كما لا يمكن أن نسلم بالقول على أنها نقيضان لا يلتقيان لأنها اجتماعا في الشرق الأوسط ، وكذلك هما مجتمعان في كرة أرضية واحدة وعليه فسلامة القول أن يقال أنها نزعتان متكاملتان في كل فرد وفي كل أمة بنسب تختلف من فرد لآخر ومن أمة إلى أخرى بحيث إذا ما أصرفت أمة في تأرجحها نحو العلم مثلا كان الأرجح أن يحثها من يذكرها بأنه لا بد للإنسان من دفء العاطفة<sup>(١)</sup>.

إذاً الجمع بين التراث والمعاصرة عند زكي نجيب محمود لم ينشأ مرة واحدة في المرحلة الثالثة من تطوره الفكري بل إن ملامح التوفيق كانت موجودة في المرحلتين الأولى والثانية ولكنها لم تتبلور بشكل قوى إلا في أواخر حياته .

وفي الأخير يمكننا القول أن زكي نجيب محمود لم يسلط الضوء فقط على الجانب الروحي للثقافة العربية فقط بل دعا كذلك إلى الاعتزاز بالأسلاف، وأن الأمر لا يقتصر على فقهاء الدين، بل يجب أن نضيف إليهم الأسماء اللامعة لعلماء الرياضيات والطب والكيمياء والفلك والمؤرخين والرحالة والشعراء والفلاسفة، فهؤلاء جميعا قد وجهوا جهودهم نحو الكون يقرءون ظواهره ويستخرجون قوانينها، حتى أصابنا الجمود منذ القرن الخامس عشر الميلاديودعا إلى جعل إسلامنا على النحو الذي كان عليه إسلام الأسبقين فيما يختص بالحياة العلمية، فقد كان عالم الرياضيات أو الكيمياء أو الطب مسلما وعالما بإضافة واو العطف بين الصفتين، بمعنى أن اهتمامه بالفرع الذي يهتم به من فروع العلم الرياضي والطبيعي كان جزءا من إسلامه، أو بعبارة أخرى كانت العبادة عنده ذات وجهين يعبد الله بالأركان الخمسة ويبحث في خلق السماوات والأرض وما بينهما كما أمره القرآن الكريم، وبهذه النظرة يكون مخرج المسلمين من مأساتهم الحالية.

## الملخص:

مرت حياة زكى نجيب محمود الفكرية بثلاثة أطوار، انشغل في الأولى التي امتدت حتى سفره إلى أوروبا بنقد الحياة الاجتماعية في مصر وتقديم نماذج من الفلسفة القديمة والحديثة والآداب التي تعبر عن الجانب التنويري، ويتمثل هذا النشاط في الكتب الثلاثة التي اشترك في تأليفها مع أحمد أمين.

وبدأت المرحلة الثانية بعد رجوعه من أوروبا وامتدت حتى الستينيات من القرن العشرين، وفي هذه الفترة دعا زكى نجيب إلى تغيير سلم القيم إلى النمط الأوربي، والأخذ بحضارة الغرب وتمثلها بكل ما فيها باعتبارها حضارة العصر، ولاشتغالها على جوانب إيجابية في مجال العلوم التجريبية والرياضيات، ولها تقاليد في تقدير العلم وفي الجدية في العمل واحترام إنسانية الإنسان، وهي قيم مفتقدة في العالم العربي.

أما المرحلة الثالثة فقد شهدت عودته إلى التراث العربي قارئاً ومنقبا عن الأفكار الجديدة فيه، وباحثاً عن سمات الهوية العربية التي تجمع بين الشرق والغرب وبين الحدس والعقل وبين الروح والمادة وبين القيم والعلم.

وفي هذه المرحلة دعا إلى فلسفة جديدة برؤية عربية تبدأ من الجذور ولا تكتفى بها، ونادى بتجديد الفكر العربي، والاستفادة من تراثه، وقال: إن ترك التراث كله هو انتحار حضارى؛ لأن التراث به لغتنا وآدابنا وقيمنا وجهود علمائنا وأدبائنا وفلاسفتنا وكان يتمنى ألا نعيش حالة على غيرنا، وإنما نشارك في هذا العالم بالأخذ والهضم والتمثيل ثم إعادة إفراز ما أخذناه مثلما فعل المسلمون حينما أخذوا العلم والفلسفة الإغريقية وهضموها ثم أفرزوها وزادوا عليها زيادات مهمة.

وكان يرى أن السر وراء تخلف العالم الإسلامى المعاصر هو أنهم يكتفون بحفظ القرآن الكريم وترديده دون العمل بما يشير إليه من وجوب العلم بالكون وظواهره، فإذا تنبه المسلم بأن البحث العلمى فى ظاهر الكون من ظاهرة الضوء إلى

الصوت إلى الكهرباء والمغناطيسية والذرة، كل ذلك يشجع عليه ديننا، وإذا أيقن أن البحث فرض ديني، لكان المسلم الآن هو صاحب العلم وجبروته، ولكان الآن من راكبي الصاروخ وغزاة الفضاء، وكان هو الآن صاحب المصانع التي تأخذ من البلاد المتخلفة موادها الخام بأقل ثمن، ثم تردها إليه مصنوعات بأعلى سعر، فيكون الثراء من نصيبه والفقير من نصيب الآخرين، لكن المسلم لم يعقل ذلك كله وظن أن العبادة وحدها هي الأمر الإلهي.

## قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

### قائمة المصادر:

- ١- زكى نجيب محمود، الشرق الفنان، دار القلم، القاهرة، بدون سنة.
- ٢- زكى نجيب محمود، تجديد الفكر العربى، دار الشروق، بيروت، ط١، ١٩٨١.
- ٣- زكى نجيب محمود، ثقافتنا فى مواجهة العصر، دار الشروق، القاهرة، ط٣، ١٩٨٣.
- ٤- زكى نجيب محمود، عن الحرية أتحدث، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٨٦.
- ٥- زكى نجيب محمود، قصة عقل، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٨٨.
- ٦- زكى نجيب محمود، قيم من التراث، دار الشروق، القاهرة، بدون طبعة، ٢٠٠٠.
- ٧- زكى نجيب محمود، من خزانة أوراقى، دار الهداية للطباعة والنشر، بدون بلد، ط١، ١٩٩٦.

### قائمة المراجع :

- ١- أسامة على الحسن موسى، المفارقات المنهجية فى فكر زكى نجيب محمود، لجنة التأليف والتعريب والنشر، الكويت، ط١، ١٩٩٧.
- ٢- عصمة أنصار، الخطاب الفلسفى عند ابن رشد وأثاره فى كتابات محمد عبده وذكى نجيب محمود، دار العلم بالغيوم، ٢٠٠٢.